الباب الأول

لمحة تاريخية عن تطور تعليم الرسم

لكي نلمس الحالة التي كان يسير عليها تدريس مادة الرسم قديمًا في المدارس المصرية، تعود بنا الذاكرة إلى ذلك العهد الذي كانت تسيطر فيه مجموعة من الإنجليز، شغلوا وظائف عمداء التفتيش بوزارة المعارف، وضع هؤلاء سياسة استعمارية للتعليم في مصر، فجعلوا من المدرسة معملًا لتخريج الموظفين، فحدوا من الحريات وكبلوا ملكة التفكير، فأصبح أساس التعليم الحفظ والاستقراء لا التفكير والابتكار.

كان الرسم قديمًا يعلم بطريقة النقل من الأمشق، والأمشق عبارة عن (كتالوج) للرسم، به مجموعة من الرسوم الاصطلاحية أو التقليدية لبعض النماذج المصنوعة في الطبيعة، كالكوب والقلة والنضد أو الطربوش، على أن يقوم التلميذ بنقل وتقليد هذه الرسوم من الأمشق إلى كراس الرسم. وكان تعليم الزخرفة يعتمد على نقل بعض الرسوم الزخرفية، أو نقل وحدات زخرفية من طراز معين (كالزخارف العربية أو الرومانية أو غيرها)، ولا يخفى ما في

هذه الطريقة من إهمال لشخصية الطفل وحد من حريته وخياله، علاوة على ما يعتريه من السأم والملل.

ثم تطور تعليم الرسم بعد ذلك إلى الرسم من الطبيعة مباشرة، فكان يوضع النموذج (كالقلة أو الكوب) أمام التلاميذ، ويقوم التلاميذ برسمه على الورقة بكل دقة ومهارة، حتى يأتي الرسم مطابقًا تمامًا للنموذج، وكذلك تطور تعليم الزخرفة إلى ابتكار بعض الترتيبات الزخرفية المختلفة بدلًا من نقلها، وفي هذا الاتجاه الجديد تقدم واضح عن الاتجاه الأول القديم.

وتطور الاتجاه بعد ذلك إلى اعتبار الطفل هو المحور الذي يجب أن تدور حوله طريقة التعليم، وتمتاز هذه الخطوة بأنها ترمي إلى إطلاق الحرية للطفل؛ لكي يعبر عن نفسه بواسطة الرسم. وأصبح الرسم تعبير عن مشاعر وإحساسات الطفل ووجدانه، وما الدرس إلا مثير لهذه المشاعر والإحساسات، واعتمد الطفل على نفسه في كشف نواحي النظم الجمالية التي كانت تفرض عليه قبل ذلك.

من ذلك يتضح لنا أنه كان لتدريس مادة الرسم موقفان:

الموقف الأول:

الموقف التقليدي القديم: وفيه كان يعتمد على تصحيح أخطاء التلاميذ بمجرد ظهورها، والعمل على تلافي هذه الأخطاء؛ وذلك رغبة من المدرس في الحصول على رسوم صحيحة، تطابق تمامًا النموذج أو تتفق ووجهة نظر المدرس نفسه، وواضح ما في هذه الطريقة من إهمال ظاهر للطفل كفرد له كيانه واستقلاله الذاتي وشخصيته.

الموقف الثاني:

الموقف الحديث: ويعتمد في أساسه على ترك التلاميذ ينشؤون نشأة طبيعية، يستمعون إلى الدرس ثم ينفعلون، ثم ينطلقون في التعبير عن مشاعرهم تعبيرًا حرًا طليقًا بعيدًا عن أي مؤثر. وإننا إذا بحثنا رسوم الأطفال لمسنا فيها صدق الملاحظة ودقة التعبير وحسن الابتكار، وإنه يلزم لمدرس التربية الفنية قدر كافٍ من الثقافة الفنية؛ حتى يمكن أن يتعرف على مميزات رسوم الأطفال وخصائصها (اللازمات)، التي كانت تعتبر فيما مضى أخطاء في الرسم، لا مظاهر تتبع تطور نمو الطفل وخبرته التي تزداد يوما بعد يوم.

تخطيطات رسوم الأطفال

يمكن تقسيم حياة الطفل إلى ثلاث مراحل:

(١) مرحلة الرسوم التخطيطية: من سن ٢- ٤ سنوات تقريبًا.

يجب على الفرد منا قبل أن يقوم بتدريس مادة الرسم، أن يكون ملمًا بطبيعة رسوم الأطفال الأولى وتطورها؛ حتى لا تلتبس عليه مظاهر نشاط الأطفال في المراحل المختلفة، فيفسرها خطأ بضعف التلميذ وعجزه عن التعبير الصحيح.

فالطفل حين تنكشف له آثار حركات يده الممسكة بالقلم على الورق أو على الأرض أو على الحائط، يعمد إلى ممارسة هذا النوع الجديد من التسلية في ضعف زائد وحماس شديد، فهو يلح في طلب الأوراق ليملأها في غير نظام بخطوط مضطربة مهوشة، وهو في هذا مدفوع بميله الفطري إلى الحركة والنشاط، ثم لا تلبس تلك الخطوط أن تكتسب نوعًا من النظام فتراها تتخذ شكلًا اهتزازيًا أو دائريًا أو متعرجًا أو خليطًا منها جميعًا.

والتخطيط ينقسم إلى أربعة أقسام:

(أ) التخطيط البسيط:

ويبدأ في حوالي العام من حياة الطفل، وينتهي في حوالي العام

الثاني. وهو عبارة عن مجموعة من الخطوط البسيطة مهوشة وغير منظمة، أغلبها قصير متقطع؛ لأن تحكم الطفل في يده الممسكة بالقلم محدود للغاية في هذه السن، وتظهر هذه الخطوط في أشكال مستقيمة أو مائلة أو منكسرة أو منحنية، ومنها ما يبلغ حجم النقطة تقريبًا أو يزيد عنها قليلًا. والطفل في هذه المرحلة يقوم بهذه التخطيطات بشغف وسرور مبتهجًا بالكشف الجديد أو اللعبة الجديدة، لما يتركه القلم من أثر على الورقة؛ لذلك كثيرا ما تجده ممسكًا بالقلم يخبط به يمنة ويسرة وفي كل اتجاه دون قصد معلوم.

(ب) التخطيط الاهتزازي (البندولي):

ويبدأ حوالي نهاية العام الثاني من حياة الطفل، وينتهي حوالي منتصف عامه الثالث. ويكون الطفل في هذه المرحلة قد تمكن من الإمساك بالقلم والتحكم في يده أكثر من المرحلة السابقة، فيستطيع أن يحرك القلم في خطوط طويلة موجية ذات اليمين وذات اليسار في حركة آنية هي أقرب شبها إلى حركة (بندول) الساعة من أي شيء آخر. وهذا النوع من التخطيطات كسابقه لا يتعدى كونه لعبة أتقنها الطفل وفرح بإتقانه لها، وليس للطفل قصد ظاهر في هذه المرحلة.

(ج) التخطيط الدائري :

ويبدأ حوالي نهاية العامين، والنصف وينتهي حوالي نهاية العام الثالث. ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يتحكم في حركة يده الممسكة بالقلم، ويستطيع أيضًا أن يحركها في حرية أكثر من المرحلة السابقة؛ إذ تكون يده قد بلغت من القوة بحيث يستطيع أن يأتي بحركات دائرية على هيئة دوائر متصلة ومتكررة في حركة شبه آلية، وهذه المرحلة أيضًا لا تتعدى كونها لعبًا بالقلم دون أي قصد أو معنى.

(د) التخطيط المتنوع :

يبدأ في نهاية العام الثالث تقريبًا أو بعد ذلك بقليل، وينتهي في حوالي العام الرابع. ويكون الطفل في هذه المرحلة قد تحكم تمامًا في حركة يده الممسكة بالقلم، يحركها على الورق كيفما شاء، فيمكنه أن يرسم مجموعة من الخطوط المتنوعة المختلفة الأشكال والاتجاهات، أي أنها تكون مختلطة من الخطوط المستقيمة والمنكسرة والمتعرجة المتقاطعة والدائرية الكاملة أو غيرها.

والتخطيطات في هذه المرحلة لا تخرج عن كونها لعبا لا قصد فيها ولا غاية، إلى نوع من المهارة اليدوية، التي يسعى فيها الطفل إلى تقليد الكبار في الإمساك بالقلم أو التخطيط به. والحركة

والتعبير ميل فطري عند الطفل موروث فيه من الأجيال السابقة؛ لذلك تجدهم مندفعين بشغف زائد إلى مزاولة هذا العمل مهما حاولت أن تمنعهم.

يتخلل مرحلة التخطيط التنويعي تخطيطات من أشكال مختلفة متباينة، تحتاج إلى سيطرة أدق وأحكم من اليد وهي ممسكة بالقلم، تتفق وإمكانيات طفل في الرابعة من عمره، بدأت تسيطر عليه بوادر التقدم العقلي وقوة الإبصار، فتكتسب هذه التخطيطات دلالة المعنى والقصد، ويصبح شكل الإنسان الموضوع المحبب للطفل، فيعبر عنه بمجموعة من الخطوط الدائرية والمستقيمة.

(٢) مرحلة الرسوم الرمزية: من ٤- ٥ سنوات تقريبًا:

وفيها يبدأ الطفل بتسمية الرسوم التي يقوم بعملها، فيعمل بعض التخطيطات ثم يطلق عليها الأسماء التي يرى فيها الطفل الشيء المقصود أو العكس، فقد يحدد الطفل اسم الشيء قبل رسمه، كأن يقول سأرسم كرة أو رجلًا أو عصفورًا، ثم يقوم بتخطيط عدة خطوط عشوائية يرى فيها الشيء المقصود، ولكننا لا يمكن أن نتميز فيها أي شكل من الأشكال التي حددها. والطفل في هذه المرحلة تكاد رسومه لا تعبر عن شيء، ولكن بالنسبة له يرى فيها كل شيء، مثله في ذلك مثل الطفل الذي يركب عصا ويعتقد

أنه راكب حصانًا. ونظرًا لكونه في هذه الفترة بالذات يحاول أن يضيف إلى قاموس لغته كلمات جديدة يتعلمها، لذلك تجد صدى هذه الكلمات يظهر بوضوح في تسمية هذه الرسوم.

(٣) الرسوم الاصطلاحية : من ٥- ١٥ سنة.

وهي عبارة عن رسوم يعملها الطفل شبيهة لما يراه من الأشياء، ونتيجة هذه الرسوم هي التي نشاهدها الآن في مدارسنا. وتقع هذه المرحلة في وقت يكون فيه الطفل في المدرسة، وقد لوحظ أن الطفل في هذه المرحلة يميل كثيرًا إلى رسم الإنسان عن الحيوان؛ تلافيًا للأخطاء التي يخشى الوقوع فيها. ولوحظ أيضًا أن الطفل عند رسمه للإنسان يبدأ برسم الرأس أولًا ثم يضع بها العين؛ لأنها أول ما يلفت نظره أكثر من الجسم الذي يعبر عنه بعدة خطوط بسيطة، ومعظم رسمه للوجه من الأمام إلا في بعض حالات فإنه يرسمه من الجنب.

وفي مرحلة الرسوم الاصطلاحية هذه لا يهتم الطفل برسم الأشياء المعروضة عليه تمامًا، فإذا عرضت عليه زهرة أو ورقة أو شجرة أو حيوانًا معينًا فإنه يرسم أي زهرة أو أي ورقة أو أي شجرة أو أي حيوان، وربما كان بعيد الشبه عن الشيء المعروض أمامه. وجميع ما يعمله الطفل في هذه المرحلة من رسوم اصطلاحية

يشترك فيها أطفال العالم بغير تمييز بين طفل وآخر، فأطفال الزنوج البدائيين يرسمون نفس ما يرسمه أطفال أرقى الشعوب؛ لذلك سميت هذه المرحلة بمرحلة الرسوم الاصطلاحية.

تطور رسوم الأطفال حتى مرحلة البلوغ

ومرحلة الرسوم الاصطلاحية هذه يمكن تقسيمها إلى مراحل زمنية تتبع تطور رسوم الأطفال، وهذه المراحل هي:

(١) مرحلة الوصف الطبيعي للفكرة: من ٧- ٨ سنوات.

ينتقل الطفل في هذه المرحلة من رسم الوحدات منفصلة إلى رسم مجموعات، كما نرى عند رسمه للأشجار، حيث إن الطفل لا يقتصر على رسم شجرة واحدة، بل يتعداها إلى رسم منظر عام يشمل أشجارًا كثيرة متشابكة كما يراها في الطبيعة، ولكن يغلب عليها التشابه. ثم يتقدم في رسم المجموعات وتصوير الفكرة، فيرسم مثلًا مجموعة من أغصان الأشجار تجمع بين التآلف في الخطوط وتصوير فكرة معينة تتحكم فيها إرادته وتفكيره. وهكذا يستمر الطفل في خطواته نحو التقدم السريع نحو تصوير الفكرة بصورة أوضح، فيرسم مثلًا رجلًا يقطف ثمارًا من شجرة، تظهر فيه قدرته وأسلوبه الخاص في التعبير دون أن يعبأ بطبيعة الأشياء من حيث أشكالها، فهو يرسم يدي الرجل طويلتين في طول الشجرة، معبرًا

بذلك عن فكرة قطف الرجل لثمار الشجرة، غير عابئ بخروج اليدين عن الطول الطبيعي لهما، فالطفل يرسم دائمًا ما يعرفه لا ما يراه، محكومًا في ذلك بالحقيقة الفكرية لا الحقيقة الواقعية المنظورة ، ويحاول الطفل هنا رسم صور جانبية للوجه دون العناية بالمنظور، وتتميز رسومه في بعض الأحيان ببعض الوحدات الزخرفية.

(٢) مرحلة الرؤية الواقعية : من ٩- ١٠ سنوات.

لم يعد الرسم من الذاكرة والخيال هو كل ما يرغب فيه الطفل، ولكن نضوجه الجسمي والعقلي يدفعه إلى الاهتمام بالتعبير عن مناظر الطبيعة بواسطة الخط المحدد، أو مع استعمال بعض التظليل الذي يساعد على تجسيم الفكرة.

(٣) مرحلة الكبت : من ١١- ١٤ سنة.

وتبلغ هذه المرحلة أقصاها في سن ١٣، وفيها يجد الطفل نفسه في حالة من التقدم البطيء في رسمه للمرئيات، وكثيرًا ما يشعر بفقدان فكرته ولا يجد في نفسه الحافز القوي الذي يدفعه إلى العمل، فقد وجد في اللغة حافزًا قويًا للتعبير عن أفكاره، وإذا استمر في الرسم فهو يفضل التعبير عن الموضوعات العامة، ويندر أن تجد الأشخاص في رسومه.

(٤) البعث الفني: (المراهقة المبكرة):

تزدهر الحاسة الفنية عند الأطفال في حوالي سن ١٥ سنة، وتظهر فيهم العبقريات الفنية كما تظهر في رسومهم بوضوح الفروق بين الجنسين، فتهتم البنات بالخطوط الرقيقة والرشاقة في التكوين، والألوان المنسجمة والتفاصيل الزخرفية ووحدات الزينة ونقش الملابس، ويذهب الأولاد في رسومهم إلى الخطوط القوية المعبرة والحركات العنيفة والألوان الحادة. والغالبية من الأطفال قد لا تصل إلى مرحلة البعث الفني هذه بأثر الكبت الذي غير اتجاههم.

منطق الأطفال وأسلوبهم في التعبير

يعتبر الفن البدائي (الرسوم والنقوش التي خلفها الرجل البدائي في عصر ما قبل التاريخ على جدران الكهوف والمغارات) من الفنون الممتازة؛ نظرًا لما تحويه من صفات تمتاز بقوة التعبير وبساطة الأداء وانسجام الخطوط والكتل والمساحات، وهي في جملتها قريبة الشبه برسوم الأطفال؛ لذلك تعتبر فنون الأطفال التي يختارونها من تلقاء أنفسهم بدائية خالصة.

ويعتبر (بيرت) أن بصيرتنا الفنية تضمحل كلما كبرنا في السن فنصبح أقصر نظرًا، وتفقد أعيننا براءتها الفطرية؛ لذلك يعتبر

الأطفال الذين دون الثامنة تقريبًا قد قربوا جدًا من منزلة الفنان أو الناقد الفني.

والتلميذ إذا لم يقع بين أيدٍ أمينة تتعهده، قد ينتهي من المدرسة وإحساسه الفني أضعف منه حين التحاقه بها، والقليل الذي يبقى له تذهب به السنوات الأولى من حياة العمل الثقيل، فالطفل يولد فنانًا صغيرًا وكلما كان الطفل أصغر سنًا كانت فنونه في الجملة أقرب إلى فنون الرجل البدائي. والبدائية في فنون الأطفال ظاهرة طبيعية وقتية في حياتهم الفردية، تعتبر طورًا من أطوار نموهم. وقد اكتشف الناقد الإنجليزي (هربرت ريد) كثيرًا من الصفات التي تتميز بها رسوم الأطفال فمنها:

(أ) رسوم تتجه للجانب الزخرفي، أي أن الطفل يميل إلى الترتيب والنظام وبساطة الخطوط.

(ب) رسوم تكشف عن نظام وترديد إيقاعي، أي أن الطفل يكون موسيقي النزعة.

(ج)رسوم تكشف عن جوانب اجتماعية في الطفل أو جوانب انطوائية حسب ميوله النفسية.

(د) أطفال يرسمون بعين تأثرية تعتمد على تأثير الألوان وصدى

انعكاساتها.

(هـ) أطفال يميلون إلى رسم التفاصيل فيهتمون بدقائق الأشياء وأجزائها.

(و) أطفال تكشف رسومهم عن تسجيل انفعالاتهم الحسية، فيعبرون عن السعادة أو عن الضعف أو عن الألم أو عن الهدوء أو عن الحزن، أو يميلون إلى التركيب المعماري.

لذلك كان أول هم المدرس أن يسعى لتفهم وإدراك ما تشير إليه رسوم الأطفال الحرة؛ حتى يمكن أن يدفع الأطفال إلى الانطلاق في التعبير وفق أساليبهم الخاصة.

التذوق وتقدير رسوم الأطفال

نحن نعرف أن الفن ليس تقليدًا آليًا لمناظر الطبيعة، أو تسجيلًا فوتوغرافيًا لما يحيط بالفرد، وإنما الفن هو صدى تفاعل الطبيعة في نفسية الفنان، وهذا يتطلب منه تسجيل إحساساته حيال الطبيعة، فتأتي اللوحة بخلق جديد وفكر جديد بالنسبة للمنظر الأصلي.

فالفنان كثيرًا ما يلجأ إلى المبالغة في تكبير الأجسام رغبة لإظهار قيمة الشيء وعظمته، فقد كبر قدماء المصريون حجم

صورة فرعون ليعبروا عن سطوته وجبروته، وفي نفس الوقت صغروا حجم باقي الأشخاص الذين حوله من الرعية. فالتكبير والتصغير هنا لغة فنية رمزية يلجأ إليها الفنان والطفل، أما الفنان فيقصد إليها بوعيه مع إدراكه أن هذه النسب ليست حقيقية، في حين أن الطفل يستخدمها بإحساسه الطبيعي كلغته الفنية الخاصة. فالطفل فنان صغير لا يأبه بالواقع كما هو مألوف، ولا بالطبيعة على أنها مجموعة قوانين (فوتوغرافية)، ولا يهتم بقواعد الرسم التي كشفتها المدنية من ظل ونور وقواعد للمنظور وتشريح وغير ذلك، فهو في تعبيره يعبر بلغته الخاصة التي يشترك فيها مع سائر أطفال العالم، فيجب علينا إذن أن نعامل هذا الطفل بلغته الفنية التي نقرؤها من وجهة نظره، ولا نقارنها بالطبيعة مقارنة آلية، بل نحاول أن نكون تلاميذ لأطفالنا نفهم بتواضع ما يبغون قوله وسرده علينا في صورهم.